

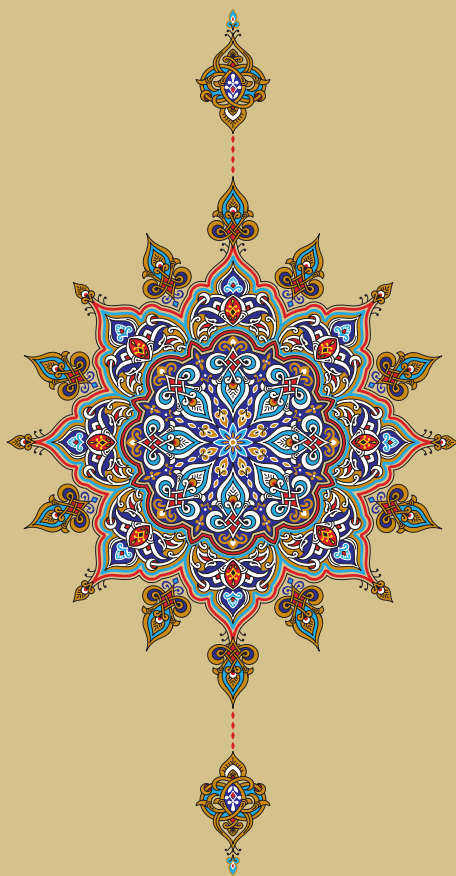


مقتطف من الدرس الحسني¹ الذي ألقاه
معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد
أحمد التوفيق بين يدي أمير المؤمنين صاحب
الجلالة الملك محمد السادس نصره الله

في موضوع: "ثمرات الإيمان في حياة الإنسان"

1-الدرس الأول من سلسلة الدروس الحسنية الرمضانية، وذلك يوم الأربعاء 7 رمضان 1444هـ، الموافق لـ 29 مارس 2023م، بالقصر الملكي بالرباط.





الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وصحبه الأكرمين

مولاي أمير المؤمنين

إن وجهة طرح موضوع "الحياة الطيبة" بمفهوم القرآن الكريم، ترتبط بمقام جنابكم الشريف في الجمع بين رعاية شئون الدين من منطلق الكلية الشرعية الأولى، وهي التزامكم بحفظ الدين بمعناه الخاص المتمثل في العبادات والأحكام والتبليغ، وبين مسئوليتكم في حفظ الدين بمعناه العام المتمثل في الكليات الشرعية الأربع الأخرى، وهي الأمن والنظام العام، والاقتصاد، وكرامة الناس.

مولاي أمير المؤمنين

منذ القرون الغابرة والإنسان يتمنى ويسعى إلى أن يكون بأحسن حال في الحياة، سعى تلك الحال المرجوة بأسماء منها "السعادة"، وهي حال يتحدث عنها الفلاسفة ويتخيلها الشعراء، ويعد بها السياسيون، أما الحال الأسى التي وعد الله تعالى بها في القرآن الكريم فسمّاها "حياة طيبة"، ووضع شرطين للتحقق بها هما الإيمان، والعمل الصالح، وهو وعد مستفاد من الآية السابعة والتسعين من سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾.

وسنقتصر في هذا الدرس، يا مولاي، على ذكر الشرط الأول وهو الإيمان وأثره في إثمار هذه الحياة الطيبة، لأنه ركنها الأول الذي إذا وقع به الإقرار والتحقق سهل على الإنسان إتيان كل أنواع الشرط الثاني وهو العمل الصالح.

ويتوقف بسط الحديث في الموضوع على إلقاء ثلاثة أسئلة يكون الجواب عنها بمثابة محاور هذا الدرس.

السؤال الأول: هل سبق للمسلمين أن نعيموا بنمط الحياة الطيبة المذكورة في



القرآن الكريم، وما مضمونها وما الذي أهلهم لها؟

السؤال الثاني: ما موقع المسلمين اليوم من هذا النمط القرآني النبوي وقد غدوا طرفا من نمط العيش الكاسح في العالم؟

السؤال الثالث: ما هي إمكانات التأهيل لهذه الحياة في سياقات وقتنا الحاضر، ومن هم الفاعلون المنتظرة أدوارهم في هذا التأهيل؟

يقتضي الجواب عن سؤال البداية الوقوف عند شرح الآية مرجع الدرس، فقد تناولها المفسرون، فقال الطبري: «الحياة الطيبة السعادة، وأولى الأقوال بالصواب فيها أنها حياة القناعة». وقال الثعالبي: «هي حلاوة الطاعة». وقال البغوي: «هي الرزق الحلال». وقال الدمشقي: «الحياة الطيبة تجمع وجوه الراحة من أي جهة كانت». وقال ابن عاشور: «هذا وعد يتساوى فيه الذكور والنساء، وهو وعد بخيرات الدنيا وأعظمها الرضا بما قُسم لهم وحسن أملهم بالعافية وعزة الإسلام في نفوسهم».

يتبين من تفسير الآية أن التوجه الغالب هو اعتبار الجانب النفسي رئيسا في نوعية الشعور والتلقي، وهي الحال التي يترجمها الشكر كما ورد في القرآن الكريم.

والذي هو محقق أن الله تعالى لم يخلق الحياة عبثا، بل خلقها جميلة وجعل فيها الإنسان وكرمه وجعله فيها خليفة، وبعث في الناس أنبياءه، ولكنه سبحانه حذر الإنسان من إغراء هذه الحياة الدنيا ومن إثارها على الحياة الأخرى.

وحيث إن إغراء الدنيا قوي على الإنسان، وهو على ما عليه من الضعف، فقد ورد في القرآن ما يحذر منها، لا ذمًا لها، ولكن شفقة على الإنسان مما هو ميال إليه من قلة الاعتدال.

وأصول الإيمان في القرآن والسنة هي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وفيها اجتهادات بين الفرق الكلامية، فالأشعرية



يرون أن الإيمان التصديق بالله قولاً، وتأتي الأعمال لتكميله. بينما ترى فرق أخرى أن الإيمان هو العمل.

على أنه لا خلاف في أن الإيمان إنما يكتسب قيمته الحقيقية في إطار الحرية بمقتضى قوله تعالى: ﴿بِمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾¹، والمذاهب متفقة على أن الإيمان يضمن النجاة.

وثمرة الإيمان: التوحيد، وهو إفراد الله بالعبودية استجابة لقوله تعالى: ﴿فَلِهُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾²، أي إثبات الوحدانية لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله. وقد حرص الصوفية على أن يسموا أنفسهم أهل التوحيد الخاص وهو التوحيد الذي لا يقف عند القول، بل يكون به الاتصاف والتجلي مؤيداً ببرهان العمل، ولا بن خلدون كلام واضح في هذا المقام حيث يقول:

«إن المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكيم، فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس... والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق ما بين القول والاتصاف، وشرحه أن كثيراً من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قريبة إلى الله تعالى مندوب إليها، ويقول بذلك ويعترف به، وهو لو رأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفرّ عنه واستنكف أن يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة والعطف والحنو والصدقة، فهذا إنما حصل له العلم من رحمة اليتيم ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف". انتهى كلام ابن خلدون.

إن ما يهمنا في هذا الدرس هو أن نستشرف كيف بدأ أمر الحياة الطيبة في الإسلام.

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته بقوله: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». ثم نزل الوحي مبيناً مهمات الرسول بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي

1-سورة الكهف، الآية: 29.

2-سورة الإخلاص، الآية: 1.

الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لبعي خلال ميين¹.

وهكذا فمهمات الرسول الأربع هي:

أولاً: تبليغ البيان الذي وردت به الآيات؛

ثانياً: تغيير حال المستجيبين بداية بتربية روحية سماها القرآن "التزكية"؛

ثالثاً: تعليم المستجيبين ما في الكتاب من الأحكام والأوامر والنواهي؛

رابعاً: تعليمهم الحكمة، وهي ما في الكتاب من الأخلاق العملية والمدارك الروحانية.

يذهب معظم المفسرين إلى أن "التزكية" تعني التطهير من الشرك، بحيث لا يشرك المؤمن بربه أحداً في العبادة، ويفهم من معظم المفسرين أن الأمر يتعلق بنبذ عبادة الأصنام التي كانت في محيط الكعبة بمكة قبل تحطيمها عند الفتح.

إن هذا التفسير الحرفي الضيق قد حرم طائفة كبيرة من الأمة من توجيه قرآني وصنيع نبوي هو من أنفس التوجيهات التربوية في الإسلام ألا وهو الحرص، كما ينبغي، على اتقاء الصنم الذي يحمله كل إنسان في جنبه، يوشك أن يدين له بأنواع العبادة والاتباع، ألا وهو صنم النفس، هذه الطاقة التي إذا هي لم تُربَّ على الخير غَدَّتْ الهوى والشح والطغيان.

فالتزكية في اللغة العربية هي التنمية، وبالتزكية كما أثمرتها التربية الروحية النبوية أمكن للمؤمنين أن يخرجوا من الجاهلية بأحوالهم الباطنية وأن يكتسبوا القوة الروحية التي يعبر عنها مفهوم الوازع، وهو الطاقة المحركة التي تردع النفس عن الشر، وتدفعها إلى الخير، وتؤهل الإنسان إلى مقام الحكمة، فمفهوم النفس هو مفهوم محوري في الهداية القرآنية، فقد ذكر القرآن النفس في أحوالها الثلاث؛

1-سورة الجمعة، الآية:2.



الأمانة بالسوء، واللوامة، والمطمئنة. وقد فصل في أحوالها بعض العلماء الصالحاء فأفردوا لها كتباً في الرقائق والورع مثل كتاب "أدب النفس" للحكيم الترمذي، وقد ركزت هذه الكتب على أن ثمرة التزكية هي المحبة؛ محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين، إذ إن تعليم الكتاب ليس للعلم وحسب، بل القصد منه العمل، وقد تنبه العلماء إلى مركزية اقتران العلم بالعمل فألفوا كتباً في اقتضاء العلم بالعمل. ولكي نفهم في عصرنا جوهر هذا الموضوع نستحضر المصطلح الشائع في حياتنا وهو مصطلح "الأناية". إن التحلي بالتزكية على أساس التوحيد يعمل في المؤمن تغييراً داخلياً يتبدل به طبيعته إلى طبيعة خيرة، يغادر فيها الأناية إلى الغيرية، فالتزكية تربية تحرر من الأناية، علماً بأن الحياة الطيبة تتوقف على هذا التحرر، وتتميز الحياة الطيبة بأنها جماعية بقدر ما هي فردية.

يرى العارفون أن هذا التغيير الجذري في الصحابة هو أعظم معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبسببه رماه الكفار من قومه بأنه ساحر حيث لم يعرفوا أثر المحبة ولم يملكوا سوى أن يفسروا التغيير في النفوس على أساس ما كان لهم من الاعتقاد في فعل السحر وأهله. يبين لنا القرآن الكريم هذا الموضوع بتحذير الذين يتبعون الهوى بقوله تعالى: ﴿أَجْرًا يَتَمَنَّوْنَ مِنَ اللَّهِ هَوَاهُ﴾¹. كما يوضح القرآن الكريم للمؤمن التمرين الذي ينبغي اتبعه للتحقق والتحلي بالتزكية حيث يتعلق الأمر بالاعتقاد من أجل التخلي عن كل أنواع البخل والشح حتى يتم الإقبال لوجه الله على أنواع الإنفاق على كل من يستحقه، فالإنفاق هو برهان الإيمان الذي تتحقق به الحياة الطيبة. وقد وصف القرآن بوصف الطيب حاجات العيش؛ ومنها القول والكلمة والتحية، والبلاد والمسكن، والرزق والكسب والطعام، والذرية والأزواج، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الصِّبْيَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾²، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن صِيبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾³. والقرآن الكريم لم يستعمل كلمة "النجاح" الرائجة

1- سورة الجاثية، الآية: 22.

2- سورة المؤمنون، الآية: 52.

3- سورة البقرة، الآية: 171.

عند الكلام عن جودة الحياة في عصرنا هذا، وإنما استعمل مقابله مصطلحا أشمل منه هو مصطلح "الفلاح". ولكي نتقدم في توضيح ما نحن بصدده نتوقف عند شرح قوله تعالى: ﴿ومن يوف شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾¹.

وحاصل قول المفسرين فيه أن البخل هو ألا تعطي ما عندك، والشح: البخل بالفضل من المال (والفضل عند الحكماء ما زاد عن الحاجة)، ويرى بعض الحكماء أن الشح في هذا الموضع إنما هو أكل أموال الناس بغير حق، وأنه هوى النفس الذي قد يدفع إلى سفك الدماء وارتكاب المحارز.

قال الرازي: نزلت هذه الآية بسبب إثارة المهاجرين، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثار.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا».

على أساس هذا الإقرار بالإيمان، وعلى أساس التوجيه النبوي الذي أُعطي لمضمونه من خلال التزكية، تتحدد ما يمكن أن نسميها سمات "الإنسان المسلم" المتأهل للحياة الطيبة على أساس ثمرات الإيمان، والتي يمكن استقراؤها كالاتي:

الالتزام بعبادة الله في وحدانيته، التزاما يعطي لحياة المؤمن معناها؛

تحقيق الحرية إزاء الأغيار البشرية والمادية؛

اكتساب المناعة ضد البخل والشح؛

اكتساب قوة باطنية تجعل المؤمن يحاسب نفسه على الدوام؛

اكتساب اليقين بأن لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى؛

1- سورة الحشر، الآية: 9.



اكتساب طبيعة الحذر من أي نوع من أنواع الفساد؛

الالتزام بتوقيع كل المخلوقات الحية والجمادة باعتبارها مخلوقة لله تعالى.

إن هذه التربية النبوية التي عنصرتها التزكية، قد أثمرت نخبة ما تزال مرجع المسلمين في الحياة وهم الصحابة، ومن الوقائع الإنسانية الكبرى البارزة في تاريخ هذه النخبة مواساة الأنصار المهاجرين بأموالهم، ونصرة الفريقين النبي في دعوته بالأنفس والأموال والشعور بحلاوة الاتباع، والحرص على الأخذ بالعدل؛ وبهذه الصفات كانوا مثالا في الزهد، وفي إكرام الفقراء، والتحلي بأخلاق الحلم والحياء، والتواضع والجود والصبر والشكر، والذكر والورع والتوكل والرضا، والتقوى والوقار.

